عكّا وحيفا: شقيقتان على طرفي خليج واحد

جوني منصور*

المسافة بين الشقيقتين غير بعيدة، تكاد لا تتجاوز العشرين كيلومترًا برًّا، وخمسة كيلومترات بحرًا، إلاّ أنّ التاريخ يربط بينهما، ويباعد أحيانًا. ففي حين أن عكّا تمتلك موروثا تاريخيا يتجاوز الألفي عام، فإنّ حيفا حديثة العهد في إطارها القائم، حيث إنّ عمرها 250 عامًا (معمر، 1979).

منذ تحوّلها إلى مدينة مركزية في شمالي فلسطين، شغلت عكّا مجموعة من الأدوار الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة والثقافيّة. ففي المجال الثقافي، على سبيل المثال، وفّرت المدرسة الأحمدية المحاذية لجامع الجزار تعليمًا دينيًا وغير ديني لطلاب المدينة وخارجها، منذ تأسيسها وحتّى النكبة عام 1948، فتخرّج في صفوفها أئمّة وشيوخ وعلماء دين، ومدرّسون. وتأسّست فيها مدارس أخرى، وكان لها دور مشهود له في حقل التعليم، ومنها مدرسة تيراسنطا التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا. ونشط عدد من أبناء عكّا في العمل السياسيّ في الفترتين العثمانيّة والانتدابيّة، ومِن بينهم مَن مثّل عكّا ومنطقتها في مجلس "المبعوثان" العثماني في استنبول، وهو المفتي أسعد الشقيري. أمّا ابنه أحمد الشقيري، فشارك في تأسيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وقام بدور وطنيّ بارز. وشهدت المدينة نشاطات سياسيّة مناهضة للانتداب البريطانيّ الداعم للمشروع الصهيونيّ، من خلال مؤتمرات وندوات. وتضم عكّا رفات الشهداء الثلاثة، حجازي، والزير، وجمجوم الذين أُعدموا على يد سلطات الانتداب البريطاني، في العام 1930، لمشاركتهم في ثورة البراق. وانتشرت، في عكّا، محلاّت ومشاغل أصحاب الحِرَف والمهن، الذين برزوا بدقة أعمالهم الفخاريّة والنحاسيّة والنسيجيّة. وتشتهر عكّا بمهارة صياديها، الذين ورثوا هذه المهنة عن أجدادهم منذ آلاف السنين، وشكّل البحر مصدر رزق لهم، ولكنّهم يتعرّضون، اليوم، إلى مضايقات من بلديّة عكّا بهدف نزع علاقتهم ببحرهم. واستقبلت عكّا، في شهري نيسان وأيار 1948، آلاف اللاجئين من حيفا الذين

وصلوها على متن بواخر وزحّافات من ميناء حيفا هربًا من نار منظّمة الهاغاناه العسكريّة، التي نفّذت خطة تهجير وترحيل أهالي حيفا. مِن اللاجئين مَن بقي في عكّا، وآخرون تركوها باتّجاه لبنان عند اقتراب موعد سقوط عكّا بيد الهاغاناه.

أمّا اليوم، فإنّ عكّا تعاني من مشاكل كثيرة، أبرزها السكن؛ حيث يجري التضييق على السكان العرب بغية تهجيرهم إلى خارج المدينة، في حين أنّهم متمسّكون ببيوتهم وحقّهم في البقاء والعيش الكريم. ومن مظاهر التضييق منع أهالي عكّا من ترميم بيوتهم بذرائع مختلفة، منها أنها قديمة، وكذلك عدم تنفيذ مشاريع تطوير داخل الأحياء العربيّة، وفي غالبيّتها داخل الأسوار، وحثّ مستثمرين يهود على شراء منازل تعود ملكيّتها لغائبين من أهالي عكّا.

أمّا الشقيقة الصغرى إلى جنوب عكّا، وهي حيفا، فتحمل تاريخًا زمنيًّا قصيرًا. فهذه المدينة، الأكثر حداثة بين مدائن فلسطين، شهدت تحوُّلات مهمّة جدًّا في مسيرة حياة الفلسطينيّين والعرب من البلاد المجاورة. ففي الوقت الذي بدأ نجم عكّا في الأفول، برزت حيفا كمدينة عصريّة منفتحة ومستعدّة لكلّ أشكال التحوّلات. وكان للاستيطان الألمانيّ دور بارز في نقل حيفا إلى مرحلة جديدة من الحداثة؛ وأيضًا لوصول الخطّ الحديديّ الحجازيّ من الشام إليها دورٌ إضافيٌّ في ربط الداخل السوريّ بالساحل، وبالتالي توفير مصادر رزق لآلاف من العمال. وعجّل تطور الميناء من حركة التطوّر التجاريّ ونموّ الاستثمارات العربيّة والأجنبيّة فيها. ولإنشاء المنطقة الصناعية في فترة الانتداب البريطاني دورٌ هامٌّ في جذب عشرات آلاف العمال إلى المدينة. في الوقت ذاته، بدأت الشرائح السكّانيّة العربيّة القادمة من مختلف مدن وقرى فلسطين، بل سوريا بمفهومها الجغرافيّ الأوسع، بوضع أسس تنظيم حياتها الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والتعليميّة، حيث بادر أهالي القرى الوافدون إلى حيفا بتأسيس جمعيّات لرعاية شؤونهم، وأيضا افتتحت مدارس تابعة لمؤسسات كنسية وجمعيات خاصة لعبت، بدورها، دورًا في رفع المستوى التعليميّ للطلاّب، ليتوازن مع ما تشهده المدينة من طفرة تطوُّريّة كبيرة. علاوة على هذا، تأسّست نوادٍ ثقافيّة وأدبيّة ورياضيّة وفّرت مجموعة كبيرة من الأنشطة للسكّان مستجيبة لأذواقهم واحتياجاتهم. وتأسّست صحف عربيّة كثيرة جاوزت الثلاثين عددًا، كان من أبرزها "الكرمل" التي أسّسها نصّار. كانت هذه الصحيفة صوتًا نبّه

العرب إلى مخاطر الصهيونيّة، ولا سيّما قضيّة بيع الأراضي. فضلاً عن ذلك، استقبلت المدينة على مسارحها، فرقًا موسيقيّة ومسرحيّة قادمة من مصر ولبنان، أبرزها فرقة رمسيس (ليوسف وهبي). ونشط مسرح الكرمل للتمثيل في حيفا بما قدّمه من عروض جذبت الآلاف من سكّان المدينة وخارجها. أمّا النشاط السياسيّ، فتمثّل بتأسيس أحزاب، وفتح فروع لأحزاب مراكزها خارج المدينة. ووفّرت هذه الأحزاب قسطًا من التوعية السياسيّة في التصدّي للمشروع الصهيونيّ الآخذ في التوسّع. ولكونها مدينة عمّال، تأسّست فيها جمعيّة العمّال العربيّة التي نظمت الحركة العمّالية في مواجهة هيمنة منظّمة "الهستدروت" الصهيونيّة. وللحركة الكشفيّة دور في تثقيف الشباب، ورفع مستوى وعيه.

إزاء هذا التطوّر المدينيّ الذي شهدته حيفا العربيّة، نشط، بالمقابل، المشروع الصهيونيّ في إقامة مستعمرات في أعالي قمم الكرمل المشْرفة على حيفا العربيّة، وتمكّنت مؤسّسات صهيونيّة من بسط سيطرتها وهيمنتها على مؤسّسات المدينة، كان أبرزها البلديّة، التي أصبحت بيدها ابتداء من 1940، وكذلك السيطرة على قطاعات صناعيّة ومصرفيّة في المدينة بدعم من حكومة الانتداب. وخلال الانتداب ارتفع عدد اليهود في المدينة عدة أضعاف، مثلما يُبين الجدول التالي:

السنة	إجمالي عدد السكان	العرب	اليهود
1914	22000	18500	3500
1922	24634	18404	6230
1931	50403	34480	15923
1944	128000	62000	66000
1948 (ما قبل النكبة)	155000	75000	80000
1948	85500	3500	82000

المصدر: (بن أرتسي، 1989، ص. 31).

وهكذا انقسمت حيفا إلى مجتمعين منتشرين في قسمين من مساحة المدينة: المجتمع الفلسطينيّ المنتشر طبيعيًّا على امتداد الساحل ومنحدرات الكرمل المنخفضة قبالة الميناء والبحر، ومجتمع يهوديّ مستوطن منتشر في أحياء على شكل مستعمرات على قمم الكرمل المشْرفة على المدينة،

الموقع الذي عزّز من إمكانيّات التفوّق عسكريًّا في المستقبل، للانقضاض على حيفا العربيّة، وتدمير وجودها خلال النكبة.

نجح العرب، من سكّان المدينة ومن خارجها، في بناء مجتمع حداثوي ليبرالي منفتح تماما على مجتمعات أخرى، من خلال أنماط الحياة التي وفرتها المدينة بطبيعة تكوينها، وما قدمته من خدمات شاملة لكلّ مناحي الحياة. تأثّر هذا المجتمع النامي والناهض بمؤثّرات مختلفة استوعبتها المدينة. ورغم وجود التأثيرات المختلفة، نجح المجتمع الفلسطينيّ الحيفاويّ في الحفاظ على هُويّته العربيّة.

تجاوز عدد السكان في حيفا، عشية وقوع النكبة، السبعين ألفًا، لم يَبقَ منهم، جرّاء النكبة، سوى 3,500، وذلك وَفْق إحصاء أجرته بلديّة حيفا بتاريخ 31 أيار 1948 (محفظة حاييم كاتس، أرشيف بلديّة حيفا). وكانت منظّمة الهاغاناه وغيرها من المنظّمات العسكريّة الصهيونيّة قد نفّذت تطهيرًا عرْقيًّا في حيفا، مستخدِمةً براميل متفجّرة وقذائف طالت الأحياء السكنيّة والمراكز التجاريّة، ممّا أدّى إلى دبّ الفزع والهلع في نفوس المواطنين. أضف إلى ذلك أنّ القيادة الانتدابيّة في حيفا مهّدت كلّ الطرق لاستيلاء المنظمات الصهيونية على المواقع الإستراتيجيّة في المدينة، بالإضافة إلى تسليمها عددًا من المقرّات والقواعد الحربيّة. وبالتالي، فإنّ تفوُّقًا عسكريًّا صهيونيًّا كان واضحَ المعالم في حيفا.ومع انقضاض المجتمع اليهوديّ ومنظّماته العسكريّة على مدينة حيفا، انقطعت مسيرة التمدّن التي عاشتها حيفا. فقد شرعت السلطات الإسرائيليّة بعمليّات هدم لأحياء بكاملها، وتوطين مهاجرين مستوطنين يهود في أحياء أخرى (كوادي الصليب) وفي بعض الأحيان في بيوت الفلسطينيّين. ومن جهة أخرى، شرعت البلديّة بتبديل أسماء الشوارع والحارات العربية كخطوة أخرى نحو تهويد المدينة، حيث لم يبقَ من الأسماء العربيّة في حيفا إلاّ 20%، وَفقًا لتقديراتنا (منصور، 1999، ص. 25)؛ وبالتالي إلى إبادة المكان، وطمس معالمه العربيّة بعد تطهيره من سكّانه الأصليّين. من جهة أخرى، سعت بلديّة حيفا والمؤسّسات الإسرائيليّة المختلفة، بعد العام 1948، إلى تشكيل حيفا يهوديّة وَفق رؤى وتطلُّعات صهيونيّة (من حيث المؤسّسات وأنماط السلوك السياسيّ)، وأوروبيّة (من حيث الفنون المعماريّة والحيّزات العامّة والحياة الثقافيّة)، محاولين، بذلك، خلق مدينة يهوديّة لا صلة لها بماضيها الفلسطينيّ. تتناسب حيفا الحالية مع متطلّبات وتطلّعات المستوطنين اليهود الإشكناز (اليهود القادمين من أوروبا)، في حين أنّ العرب الباقين فيها (3500 تقريبا من أصل 80 ألفًا بعد النكبة مباشرة) (منصور، 1999، ص. 27، محفظة حايم كاتس- بلدية حيفا) ومن انضمّ إليهم من قرى

الجليل وشماليّ المثلّث طلبًا للرزق والتعليم يبحثون، بجِدّيّة، عمّا يجعلهم ينتمون إلى ما بقي من مدينتهم العربيّة.

المدينة الحالية غريبة عن أساسها وشكلها العربيّين، إذ بدأت بدأت تفقد هُويّتها العربيّة شكلاً ومضمونًا، فكأنّنا أمام حيفا أخرى غير تلك التي أسّسها سكّانها الأصليّون، وأرادوها وَفق رؤاهم وتطلُّعاتهم.

في مقابل هذا، تعمل بلديّة عكّا على تفريغ البلدة القديمة من سكّانها العرب، وذلك من خلال إهمال مستمرّ في أعمال الصيانة، ومنع البناء فيها من قبل العرب، بذريعة كونها مدينة تاريخيّة واثريّة. إضافة إلى إهمال كبير للخدمات الاجتماعيّة، وهو ما ينعكس سلبًا على مظاهر الحياة، بحيث تفشّى استعمال السموم والمخدّرات والجنوح إلى الجريمة. من جهة أخرى، اهتمّت البلديّة ببناء أحياء جديدة خارج الأسوار لاستقبال المستوطنين المهاجرين اليهود. وهكذا تكوّنت مدينتان: عكّا القديمة بطابعها التاريخيّ الآيل للسقوط، وعكّا الجديدة متطورة. وهكذا هو الحال في حيفا العربيّة، حيث جرى إهمال منهجيّ للأحياء العربيّة، وبالمقابل الاستثمار الكبير بالأحياء اليهودية. ففي كلّ مدينة مجتمعان منفصل كلّ منهما (العربيّ واليهوديّ) قوميًّا واجتماعيًّا وتعليميًّا وخدماتيًّا عن الآخر، دونما وجود أيّ رابط تقريبًا بينهما، استجابة لسياسات حكوميّة إسرائيليّة ومحلّيّة مُحْكَمة التخطيط والتطبيق بما يتوافق مع مشروع التهويد والفصل العنصريّ الآخذ في الازدياد.

***د. جوني منصور** هو مؤرخ ومحاضر في قسم التاريخ في كلية بيت بيرل الأكاديمية.

المراجع

معمر، توفيق (1979). **ظاهر العمر**. الناصرة: مطبعة الحكيم.

منصور، جوني (1999). **شوارع حيفا العربية**. حيفا: جمعية التطوير الاجتماعي.

العبرية

محفظة حاييم كاتس، (1948، أيار 31). أرشيف بلدية حيفا.

بن ارتسي، يوسي (1989). **حيفا في تطورها (1918-1948)**. القدس: ياد اسحق بن تسفي.